رأي ابن رشيق القيرواني في بنية القصيدة ومكانته في النقد الأدبي

د/ صالـــح مفقودة
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة محمد خيضر بسكرة

ملخــص:

يتناول هذا المقال مكانة الناقــد المغاربي ابن رشيق القيرواني النقدية من خلال تسليط الضوء على قضــية نقديــة مهمة تتمثل في بنية النص الشعري .

ولتوضيح مكانته النقدية وقيمــة رأيه في هذه القضية اقتضى الأمر معرفة أراء النقاد السابقين أو المعاصرين له في تلك القضية ، ثم الكشف عما توصل إليه النقد حديثا في المجال نفسه .

Résumé

Cet article aborde la position scientifique du critique Maghrébin Ibn Rachiq, d'après la structure du texte poétique.

Pour clarifier sa position critique littéraire, et la valeur de son opinion sur ce propos, il fallait connaître celles des précédents, et celles des contemporains, en dévoilant enfin ce que la critique littéraire moderne a réalisé dans le même domaine.

ابن رشيق القيرواني:

هوالحسن بن رشيق ، ولد بالمسيلة عام 385هـ الموافق لـ 995 م وقيل إنه ولد بالمحمدية ، فهو إذن جزائري المولد ، وعلى الأرجح فهو مسيلي المولد ، وبمكان ميلاده تأدب أي درس وتعلم(1). كان أبوه مملوكا روميا من موالي قبيلة الأزد ، وكان يشتغل بالصياغة، وقد ارتحل الفتى إلى القيروان، وبها اشتهر وفيها اشتهر ، وطاب له المقام لدي المعز بن باديس ، ثم هاجر إلى الأندلس، واستقر بمازر وهي بلده بجزيرة صقلية ، وبقي هناك حتى وافته المنية عام 463هـ ، وقيل إنه توفي ليلة السبت غرة ذي القعدة من العام المذكور. (2)

من مصنفاته جملة من الرسائل نذكر منها : رسالة قطع الأنفاس ورسالة نجح الطلب ، ورسالة قراضة الذهب ، غير أن أشهر مؤلف له كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده وعيوبه ، وهوكتاب يقع في جزأين ، وقد اعتمدت على النسخة التي حققها محمد محي الدين عبد الحميد ، الصادرة في طبعتها الأولى عن مطبعة حجازي عام 1934م-1353هـ . والكتاب يقع في أكثر من ستمائة صفحة .ولابن رشيق فضلا عن المعارف النقدية والأخبار والسير وعلوم اللغة باع في الشعر أيضا ، ومن شعره قوله : (3)

أُحِبُّ أَخِي وَإِنْ أَعْرَضْتُ عَنْهُ	وَقَلَّ عَلَى مَسَامِعِهِ كَلَامِي
وَلِي فِي وَجْهِهِ تَقْطِيبُ رَاضٍ	كَمَا قَطَّبْتُ فِي وَجْهِهِ الْمُدَامُ
وَرُبَّ تَقْطِيبٍ مِنْ غَيْرِ بُغْضٍ	وَبُغْضٍ كَامِنٍ تَحْتَ ابْتِسَامِ

I - بنية القصيدة في كتاب العمدة:

في كتاب العمدة جملة من القضايا النقدية المتعلقة بالشعر ومحاسنه وأغراضه غير أننا سنتناول نقطة محددة تتعلق ببنية القصيدة ووحدتها ، وهو الموضوع الذي يعد من المواضيع النقدية الهامة ، أسال كثيرا من حبر النقاد وكان أهم قضية نقدية في العصر الحديث ، وفي هذا المجال تستوقفنا في كتاب العمدة لفظة بالغة الأهمية لأنها تمثل

مصطلحا نقديا ، وقد أشار لها ابن رشيق بل جعلها عنوانا لباب من أبواب العمدة ، إنها لفظة " **بِنْيَة** " والتي استخدمتها البنيوية

لقد وردت هذه الفظة عنوانا لباب هو" باب حد الشعر وبنيته ".[4]

وعلى الرغم من أن هذا المصطلح غير مؤصل عند ابن رشيق ولم يقصد به ما يقصده المنهج البنيوي اليوم ، إلا أن لهذه اللفظة أهميتها ، فهي تدل على نظرة كلية شمولية موحدة للقصيدة وللشعر عامة .

1- أجزاء القصيدة :

وتجد هذه النظرة تدعيما لها في باب آخر بعنوان " المبدأ والخروج والنهاية " يتكلم ابن رشيق في هذا الباب عن أجزاء القصيدة من مقدمة وخاتمة وما بينهما من أغراض أومن غرض أساس .

أ/ المبدأ :

أكد ابن رشيق على ضرورة حسن الابتداء وحسن التخلص مدعما أقواله بأمثلة شعرية من عيون الشعر العربي ،فاعتبر أفضل الابتداءات ما أورده امرؤ القيس في قوله: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ، فهو"عندهم أفضل ابتداء صنعه شاعر، لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد " [6]

فإذا ما هجم الشاعر مباشرة على موضوعه دون نسيب فإن ذلك يسمى بالوثب والبتر والكسع والاقتضاب ، والقصيدة بذلك تشبه الخطبة البتراء التي لا يبتدأ فيها بحمد الله .[7]

ب/ الخروج :

أما الخروج فهو أن يخرج الشاعر من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف، ومن الناس من يسمى الخروج تخلصا وتوسلا ، وكانت العرب تستعمل بعض الصيغ المعروفة مثل (دع ذا) و(عد عن ذا) ويأخذون فيما يريدون ، فإذا لم يستعمل الشعراء مثل ذلك، وانتقلوا مباشرة إلى الموضوع الموالي فإن ذلك يسمى طفرا أوانقطاعا ، وقد استخدمه البحتري في قوله :

لَوْلَا الرجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ الْهَوَى لَكِنَّ قَلْبِــي بِالرجَــاءِ مُوكَّلُ
إِنَّ الرعِيَّةَ لَــمْ تَزَلْ فِي سِيــرَةٍ عُمَرِيَّةٍ مُنْذُ سَاسَهَا المُتَوَكِـلُ [8]

ج / الانتهـــــاء :

أما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها من الأسماع ، وسبيله أن يكــون محكما ، لا تكمن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه .[9]

2- وحدة القصيدة :

نلاحظ أن استخدام كلمات البدء ، الخروج ، الانتهاء ، واستخدام كلمة مفتاح ، وقفل يدل على النظرة الموحدة للقصيدة ، والرغبة في لم شتاتها فهي كل موحد ، يــدل علــى نظرة لم تكن واضحة المعالم من قبل ، وتتضح هذه النظرة الوحدوية للقصيدة من خــلال النص الآتي الذي يورده ابن رشيق نقلا عن الحاتمي الذي كثيرا ما نسب له أقوالا نقديــة يقول ابن رشيق : "وقال الحاتمي من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أوذم متصلا به غير منفصل عنه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في حجة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه (أي تنقصها) وتعفى معالم جماله ، ووجدت حذاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يتحرسون من مثل هــذه الحــال احتراســا يحميهم من شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الإحسان .[10]

وواضح من خلال هذا القول أن ابن رشيق مهتم غاية الاهتمام بوحدة القصيدة فقــد شبهــها بجــسم الإنسان ، فهي كائن حي ، تتكون من أجزاء متناسقة متناسبة ولكل قســم أو جزء مكانــه بحــيث لا يغنــي الواحد منها عن الآخر ، مما يجعل التقديم أو التأخير أو الحذف أو الزيادة أمورا متعذرة ، وهذه نظرة لا نعتقد أن أحدا من النقــاد ســبق ابــن رشيق إليها .

II – آراء النقاد قبل ابن رشيق في بنية القصيدة :

1. ابـــن قتيبـــــــــة :

حين ننظر إلى النقاد قبل ابن رشيق ، وما قالوه عن القصيدة وأجزائها نجد الـــرأي التأسيسي الأول لابن قتيبة الذي يقسم القصيدة إلى الأجزاء التقليدية المعروفة : الأطلال– النسيب – الرحلة – المدح ، وهذا من خلال نصه الشهير الذي يقول فيه :

"وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيهـــا بـــذكر الـــديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لـــذكر أهلها الظاعنين عنها ...ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألـــم الفـــراق وفـــرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ... لأن التشبيب قريب مـــن النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبـــــة الغـــــزل وإلـــــف النســـاء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم ...فـــإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق فرحـــل فـــي شعره ، وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير ، وانضاء الراحلة والبعير فـــإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل ، وقرر عنده مـــا نالـــه مـــن المكاره في الميسر بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزه للسماح ... فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام."(11)

فابن قتيبة قسم القصيدة إلى أجزاء وحاول إيجاد روابـــط بـــين هـــذه الأجـــزاء وأكد على العدل بين هذه ا لأقسام ، مراعيا جانب المتلقي وبالرغم من أهمية هـــذا الرأي وأولـــيته إلا أنه عام ينطبق على كثير من القصائد ولا يراعـــي خصوصـــية قصيـــــدة بعيـــنها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فهولا يصدق إلا على قصائد المدح ، ولا يهـــتم في المقدمات إلا بالمقدمة الطللية في حين توجد مقدمات أخرى، تتصدر قصـــائد الشـــعر القديم .

2. ثعلـــــــــب :

وإذا انتقلنا إلى ثعلـــب صاحب كتاب قواعد الشعر وجدنا لديـــه قضـــية حســـن التخلص (12) ،وذلك باستخدام الألفاظ والعبارات الشهيرة من مثل قول الشـــاعر "دع ذا "

أو عد عما ترى ...أو غير ذلك من العبارات التي تفصل بـين غـرض وآخـر فـي القصيدة، وقد نبه ثعلب إلى أن الشاعر قد يتحول بين صدر البيت وعجزه إلى موضـوع آخر ومثل هذا الرأي نجده مكررا عند ابن رشيق.

3. ابن طبـاطبـا:

أما ابن طباطبا صاحب عيار الشعر فقد أكد على حسن تجاور الأبيات فقال : وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته ويقف على حسن تجاورها أو يتجـه فـيلائم بينها لتنتظم له معانيها ويتصل كلامه فيها .(13)

نلاحظ أن غاية ما توصل إليه النقد الأدبي وحدة التسلسل التقليديـة كمـا يصـفها الدكتور جابر عصفور حيث ينتقل الشاعر من موضوع إلى آخر ، وهو الموقـف الـذي نجده لدى حازم القرطاجني يقول جابر عصفور عنه : وعلى هذا الأساس يمكن القول إن القصيدة عند حازم تتكون من أغراض أساسية يتفرع كل غرض منها إلى مجموعة مـن الفصول تتسلسل فيما بينها بعلاقة تناسب شبيهة بالعلاقة التي تصل حبات العقد .(14)

إن هذه النظرة للقصيـدة وأغراضها قد كرست وحـدة البيـت في النـقد الأدبي وأقرت – في أحسن الظروف – بوحدة أخرى هي وحدة الموضوع ، مع الإقرار بتعـدد الموضوعات داخل القصيدة وهذا أقصى ما توصل إليه النقد الأدبي حتى عهد ابن رشـيق القيرواني .

أما عنده فنجد فكرة جديدة تتمثل في النظر إلى القصيدة على أنها كائن حي ، لكل جزء مكانه الخاص ، هذه النظرة غاية في الأهمية ولكنها مع الأسف لم تتطور بعده.

III - جماعة الديوان والدعوة إلى وحدة القصيدة:

بقي النقد العربي يراوح مكانه إلى العصر الحديث ، حيث ظهرت النهضة الأدبية والنقدية ، في مطلع عصر النهضة ، وإذا تخطينا مرحلة الأحياء النقدية على يد المرصفي فإننا نجد جماعة الديوان في النقد أهم مدرسة نقدية ، وتتكون جماعة الديوان من الثلاثي: العقاد والمازني وشكري ، ومن الأمور التي تطرقت لها هذه المدرسة قضية الوحدة في

القصيدة ، مستعينة بالنقد الغربي الإنجليزي بصورة خاصة ، وقد تكلمت هذه المدرسة النقدية عما يسمى بالوحدة العضوية في القصيدة ، يقول العقاد عن الوحدة: " إن القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيه تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها ، واللحن الموسيقي بأنغامه .... فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي ، يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ، ولا يغني عن غيره من موضعه إلا كما تغني الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة ، أوهي كالبيت المقسم لكل حجرة مكانها وفائدتها وهندستها ".(15)

حين نقابل رأى العقاد برأي ابن رشيق نجد الأمر واحدا ، فكلاهما يجعل القصيدة كالكائن الحي ، وإذن ففكرة العقاد حول الوحدة والتي هاجم بها شعر شوقي متهما شعره بالتفكك ، وطبقها على ابن الرومي معتبرا شعره موحدا ، هذه الفكرة سبق أن أشار إليها بالصورة نفسها العلامة ابن رشيق ، دون أن يطور هذه النظرة أحد من بعده ، لأن الأمة كانت قد غرقت بعدئذ في الأوحال ... ودخلت عصر الظلمات.

VI - مكانة ابن رشيق النقدية :

يعد رأي ابن رشيق في وحدة القصيدة رأيا تأسيسيا في مجال الوحدة ،وبذلك فهو يحتل مكانة هامة بين النقاد.

إن اعتبار القصيدة كائنا حيا هي الفكرة التي أوحت لرولاند بارت بالحديث عن متعة النص ، فاعتبار القصيدة جسدا حيا يجعل التعامل مع النص يختلف، بحيث ننظر إلى القصيدة على أنها كالجسم البشري له روح ، وله أبعاد متعددة ، وخفايا ، فهو نص ينطوي على أسرار ، ولكي نكشفها يجب أن نعايش النص ، وأن نقيم معه علاقة ألفة ، لنستمتع به ، ونصل إلى ما دعاه رولاند بارت لذة النص.

بهذا يمكن القول إن ما ورد في العمدة لابن رشيق من آراء نقدية يعد نقاطا عالمية، لها شأنها العظيم ، كل ذلك في غير تنكر لتراثه النقدي .

خـــاتمــة:

إننا ومن خلال ما أوردناه عن العلامة ابن رشيق يمكن أن نسجل بعض الملاحظات القيمة حول ابن رشيق وكتابه العمدة في شكل نقاط :

أ/ الاهتمام بالمتلقي في معالجة قضايا الإبداع ، وهي فكرة معاصرة أيضا بل من أبرز النقاط التي توصل إليها النقد المعاصر ممثلا في نظرية التلقي أوالاستقبال سواء في المنهج التفكيكي أوفي مدرسة التلقي الألمانية عند أبرز ناقدين فيها: يَاوَس" Hans Robert Jauss" وأَيْزَرْ " Wolfgang Iser".

ب/ تدعيم القضايا النظرية في كتاب العمدة بأمور تطبيقية ، فابن رشيق يورد عن كل رأي أبياتا شعرية من التراث العربي .

ج/ التحلي بالأمانة والروح العلمية ، فلم ينسب ابن رشيق الأقوال لنفسه بل كان ينسبها إلى أصحابها ، فقد نقل الرأي المتعلق بالوحدة عن الحاتمي ، وهذا مبدأ هام من مبادئ البحث العلمي .

د/ الاطلاع على آراء النقاد القدامى ، والاستفادة منهم وعدم التطاول عليهم ، وفي الوقت نفسه عدم اتباعهم بصفة مطلقة .

هذه الملاحظات وغيرها تسمح لنا بالحكم على ابن رشيق بأنه ناقد متميز في مسيرة النقد الأدبي وتاريخه الطويل ، وبدراسة الحركة النقدية بعده يمكن القول إن لهذا الناقد مكانته على مستوى النقد العالمي .ويبرهن ابن رشيق مرة أخرى على أهمية المغرب والأندلس في الإضافة الحقة للتراث العربي إبداعا ونقدا . غير أن الذي نلاحظه أن هذا الناقد على جلال قدره وعظمة آرائه لم يلق اهتماما من قبل الدارسين المشارقة بالقدر الكافي ، فقد رفعوا مكانة عبد القاهر الجرجاني بارزة وهو يستحق ذلك في نظرية النظم ، ولكنهم لم يهتموا بمعاصر آخر هو ابن رشيق ، وقلما أفردوا له فصلا في كتاب .

وأمام هذا الإهمال غير المبرر ، والتجاهل الواضح فإن الدعوة التي نوجهها هي ضرورة دراسة هذا الكتاب الهام في الجامعة الجزائرية ، وفي المدارس . وتخصيص بحوث علمية لهذا الناقد الرائد .

الهوامش:

1. ابن رشيق القيرواني : العمدة ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي بالقاهرة ط 1 ، ج 2 ص " ز" من المقدمة .
2. نفسه ، ج2 ص ح .
3. نفسه ، ج2 ص ح .
4. نفسه ج1 ، ص 99 .
5. نفسه ج1 ، ص 191.
6. نفسه ج1 ، ص 191.
7. نفسه ج1 ، ص 203.
8. نفسه ج1 ، ص 211.
9. نفسه ج1 ، ص 211.
10. نفسه ج1 ، ص 112.
11. ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، تخفيف وشرح أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر . 1966 ، ص 76.
12. ثعلب (أحمد بن يحي): قواعد الشعر ، تحفيق د رمضان عبد التواب ، دار المعرفة .القاهرة 1966 ، ص 60.
13. ابن طباطبا : عيار الشعر.تحقيق وتعليق محمد زغلول سلام ، منشأة دار المعارف بالأسكندريه .ط3 .د.ت .ص.40.
14. جابر عصفور : مفهوم الشعر ، دراسة في التراث النقدي . المركز العربي للثقافة والعلوم 1982 ، ص 457 .
15. عباس محمود العقاد : الديوان ، مكتبة السعادة ، القاهرة ، ط 2 1921 .ص 46 .